



غازي انعيم\*

## الكلمة والصورة

في

## المخطوطات الإسلاميّة

◀◀ عكست المخطوطات العربيّة الإسلاميّة في شتى فروع العلوم والمعرفة الإنسانيّة، مدارس فنيّة ازدهرت في العصور الإسلاميّة المتتالية، وتتنّح في معظمها محاولات جادّة من قِبَل المصوّر والخطّاط والمزخرف لجلب انتباه المُشاهد وإبهاره من خلال الصور التي توضح حوادثها وتشرح قصصها في العلم والأدب.

من المشاهد التصويريّة في المخطوطات البيئّة العربيّة والإسلاميّة، لذلك تُعدُّ المخطوطات التراث الوحيد الذي بقي محفوظاً قياساً بغيره من التراث في الحضارات غير الإسلاميّة. وكان العنصر الكتابي الخطي إلى جانب الصورة عنصراً رئيساً في المخطوطات الإسلاميّة في البداية، وكان المصوّر بحكم عمله تابعاً للخطّاط؛ وكان عليه أن ينتظر إلى أن يفرغ الخطّاط من الكتابة بعد أن يختار شكل الخطّ ونوعه فضلاً عن اختياره نوع الورق أو الجلد وتصميم الصفحات بما

ساهمت الكلمة والصورة في تزويق المخطوطات وتوضيح نصوصها؛ حيث تؤكد النصوص القديمة عناية المسلمين بذلك منذ القرون الأولى، وصحيح أنّ الفنان المسلم لم يعنَ بتصوير عناصره المختلفة من أشخاص وحيوانات ونباتات ومبانٍ.. كما يراها في الطبيعة، لكنه صوّرها في الكتب الأدبيّة والقصص والتاريخ والكتب العلميّة خاليّة من التّجسيم والعمق، ممّا أدّى إلى أن يكون للصورة طابعها الزخرفي سواء في وحداتها أو في تصميمها العام؛ وقد عكس الكثير

\* كاتب وفنان تشكيلي أردني

ghaziinaim@gmail.com

المقرونة بصور بشرية الاستدلال على مرض يكون لذلك النبات مفعول خاص ضده، وظهرت هذه الصور التوضيحية لأول مرة في نسخة عربية مؤرخة عام (476هـ/ 1083م)، وهي ضمن مقتنيات مكتبة جامعة "ليدن" بهولندا، وتحتفظ مكتبة "آيا صوفيا" في إسطنبول بنسخة تم نسخها في عام (621هـ/ 1224م). بالإضافة إلى ما ذكر من مصورات هذه المدرسة، فقد صورت فيها نسخة من مخطوط "عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات" لذكريا بن محمد الفزويني (1203- 1283م)، والنسخة الأصلية من هذا المخطوط محفوظة في المكتبة



من رسومات كمال الدين بهزاد

فيها من الزخارف الداخلية ونصوص الهوامش؛ وتحديد المكان الذي يشغله المصور، وأخيراً نوع التجليد وشكله. وتنقسم الرسوم التوضيحية التي زينت المخطوطات الإسلامية إلى قسمين أساسيين: - الرسوم التي كانت توضح نصوص المخطوطات العلمية مثل: كتب الطب والهندسة والحيوان والنبات والجغرافيا. - النصوص الأدبية كالقصص والمقامات والأشعار.

### فن المخطوطات العلمية

تعدُّ المدرسة العراقية في التصوير الإسلامي التي أثر أسلوبها في مراكز أخرى للتصوير مثل سورية ومصر والمغرب والأندلس.. سبّاقة في هذا المجال، وقد نُسبت إلى هذه المدرسة مجموعة من المخطوطات العربية التي تناولت المواضيع العلمية والمترجمة عن اليونانية في الطب والعلوم الأخرى.

وقد كانت المخطوطات العلمية بحكم موضوعها تحتوي على رسوم علمية كان القصد منها هو التفسير والتوضيح والشرح للنصوص التي كانت تصاحبها دون تدخل من الرسّام.

ومن أشهر فنّاني هذه المدرسة عبدالله بن الفضل الذي كتب وصوّر نسخة من كتاب "خواص العقاقير" المترجم عن اليونانية للمؤلف "ديسقوريدس". وهو من أهم كتب الصيدلة التقليدية. حيث أمكن بواسطة التّصاویر الواردة بهذا المخطوط للنباتات والأعشاب الطيبة

البريطانيّة، وهو موسوعة من جزئين تشتمل على معارف متنوّعة تتخلّلها رسوم ملوّنة وزخارف مذهّبة تصوّر ما يسبح في السماء من كواكب وأجرام وحركاتها وما ينتج عن ذلك من فصول السنة، والهواء وما فيه من رياح وأنواعها، والأرض وتضاريسها، وظواهر طبيعيّة ومناخيّة، بالإضافة إلى البحار والأنهار والجزر، وعالم المعادن والنبات والإنسان والحيوان وغيرها.

كما اعتنى المسلمون بتزويق الكتب التي تتناول عادات الحيوان وسلوكه، ومن هذه الكتب كتاب "البيطرة" لأحمد بن حسن بن الأحنف، وقد نسخه علي بن حسن بن هيبه الله في بغداد سنة (605هـ/ 1209م)، ويضمّ المخطوط تسع وثلاثين صورة تمثل حيّلاً وأدميين، وتوضّح أمراض الخيل وطريقة علاجها.

وإلى جانب كتاب "البيطرة" يعتبر كتاب "الحيوان" للجاحظ، وكتاب "منافع الحيوان" لابن بختيشوع من أهم كتب الحيوان التي اعتنى المصورون بتزويقها.

وعمل العرب المسلمون أيضاً على توضيح كتب الأجهزة الميكانيكيّة بالتصاوير، وهذا ما يوضّحه مخطوط "الحيل الميكانيكيّة" الذي وضعه الجزري وجمع فيه اختراعات نورالدين محمد، ويشتمل المخطوط على ساعات مائيّة وأجهزة ميكانيكيّة مختلفة؛ ومن أشهر الكتب العلميّة المزيّنة بالتصاوير مخطوط (الجامع بين العلم والعمل النافع في صناعة الحيل)، وقد أتمّه ابن الرزاز الجزري سنة 1206م، ويشتمل الكتاب على وصف الآلات المختلفة من ضاغطة ورافعة

وناقلة وما يتصل بها من صور آدميّة وحيوانيّة ورسوم طيور.

أمّا مخطوط "الترياق" لجالينوس فقد كتبه محمد بن عبدالواحد ابن أبي الحسن في سنة (595هـ/ 1199م)، ويشتمل المخطوط على 13 صفحة مصوّرة لأشكال النبات وجدول لرسوم الأفاعي بالإضافة إلى مجموعة تمثّل مشاهير الأطباء كل منهم في غرفته يحاور بعض تلاميذه.

كما برع العرب والمسلمون في تأليف كتب الفلك؛ حيث قاموا بتضمينها صوراً لرموز البروج والنجوم والكواكب. وقد وصلنا عدد من المخطوطات الفلكيّة منها مخطوط "صور الكواكب الثمانية والأربعين" لأبي الحسين عبدالرحمن بن عمر الصوفي (-219 376هـ/ -903 986م). وهو من كبار علماء الفلك، حيث قام برصد النجوم، وعدّها وحدّد أبعادها عرضاً وطولاً في السماء، ثم رسم خريطة للسماء فيها مواضع النجوم وأحجامها ودرجة لمعان كل منها.

### فنّ المخطوطات الأدبيّة

أقبل العرب والمسلمون في العصور الوسطى على تزويق كثير من المخطوطات الأدبيّة، لتوضيح النصوص التي تصاحبها رسوم جميلة تتجلّى فيها مهارة الرّسام وموهبته في التخيل، فكان يضيف إلى القيمة الأدبيّة للكتاب قيمةً فنيّةً أخرى، لذلك اشتملت المخطوطات الأدبيّة ذات الموضوع الواحد على رسوم تتوّعت من حيث الموضوع والتصميم والأسلوب الفني تبعاً لاختلاف الفنان أو المكان أو العصر أو المدرسة الفنيّة.

أو ملك الغريبان وهو يتباحث مع مستشاريه، وقد احتذى المصوّر في المخطوط الأساليب الساسانيّة خصوصًا في تصوير الحيوانات. ومن أشهر المخطوطات الأدبيّة في هذه الفترة المبكرة أيضًا كتاب "مقامات الحريري" الذي وضعه أبو محمد القاسم بن علي الحريري في بغداد عام 634هـ، والكتاب يتألف من مجموعة من القصص القصيرة بطلها "أبو زيد" الذي يعرف بارتجالاته الحاذقة وإدعاءاته المستهترّة، وقد قام بخطّها ورسمها يحيى محمود الذي اشتهر بلقب "الواسطي".

مخطوطات هذه المقامات الموجودة في لينينغراد (سانت بطرسبورغ) وباريس، تكشف عن كثير من مظاهر حياتيّة حدثت في أماكن عديدة، مثل الحانات، والأسواق، والخانات التجاريّة، والمساجد، والمآذن، ومجالس القضاة، وغرف الدرس، وبلاط الحكام.. وعن طريق هذه الرسوم أطلعنا الواسطي على الطرز المعماريّة، والثياب، وكذلك على شكل السفن ونوعيّة الآلات الموسيقيّة.

رسوم هذه المقامات تبدو مسطّحة لا أثر فيها للظلال أو التّجسيم، وتبدو الأشخاص والحيوانات والعمائر على مستوى النظر سواء كانت في العراء أم في داخل المباني.

أما أهم المخطوطات الأدبيّة المصوّرة التي تناولت الحُبّ هي المخطوطات التي تنتسب إلى مدرسة (الأندلس أو مراكش) في القرن الثالث عشر الميلادي، حكاية "بياض ورياض" على غرار قصص ألف ليلة وليلة، وتُتضح هذه الحقيقة



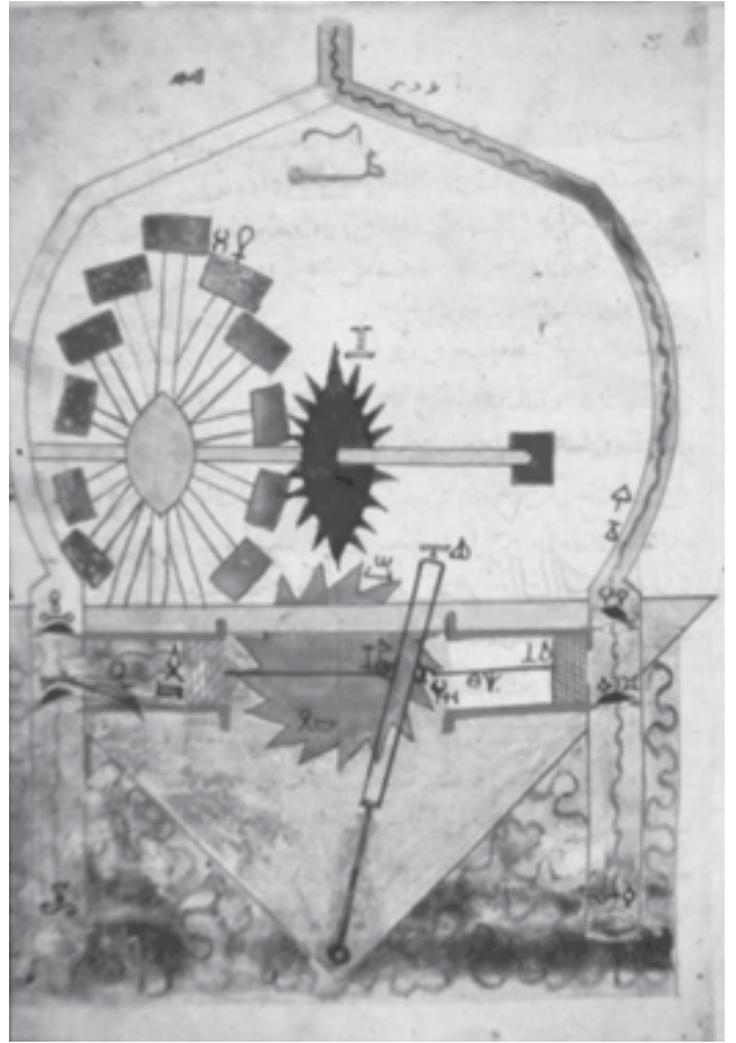
## من تراث الجزري في الذروة التقنية للمسلمين

ومن أقدم الكتب الأدبيّة التي اعتنى العرب والمسلمون بتزييقها بالتصاویر كتاب رسوم الحيوانات في مخطوطات "كليلة ودمنة"، وهي مجموعة من الأساطير الهنديّة كتبها الفيلسوف الهندي "بيديا"، ونقله إلى العربيّة عبدالله بن المقفع في عام 132هـ.

يحتوي المخطوط على مجموعة من القصص الرمزيّة وُضعت على أسنة الحيوان والطير، وحوّت من الأخلاق والحكم الكثير؛ وهي تدور حول ما يجب أن يجري عليه الحكام في حكمهم وسياسة دولتهم، حيث تتقمّص الحيوانات في هذه القصص الصفة الإنسانيّة كما هي الحال في صورة الأرنب الذي يواجه ملك الفيلة في بئر القمر؛

من خلال ما تمّ تصويره في هذا المخطوط بساطة العمارة وعدم اهتمام المصوّر بقواعد التشريح للجسم الإنساني وكذلك لقواعد المنظور. وكان كمال الدين بهزاد المولود في هراة ما بين 1440 و1450م، واحدًا من الفنانين الذين تجلّت موهبتهم في التصاوير التي زوّد بها مخطوطات عدة، منها كتاب أشعار سعدي الشيرازي المعروف بالبستان، تحتفظ بها دار الكتب المصريّة بالقاهرة، وهناك أيضًا نسخة من أشعار نظامي المعروفة بـ"خمسة نظامي" محفوظة بالمتحف البريطاني بلندن. ومن مميّزات أسلوب بهزاد، توظيفه الألوان للتعبير عن الأجواء النفسيّة لموضوعات تصاويره.

أخيرًا، عكست المخطوطات العربيّة الإسلاميّة في شتى فروع العلوم والمعرفة الإنسانيّة، مدارس فنيّة ازدهرت في العصور الإسلاميّة المتتالية، وتّضح في معظمها محاولات جادّة من قِبَل المصوّر والخطّاط والمزخرف لجلب انتباه المُشاهد وإبهاره من خلال الصور التي توضّح حوادثها وتشرح قصصها، وتعتبر هذه المخطوطات نتاجًا متميّزًا ووثائق مهمّة تكشف عن طبيعة عصرها. وتعكس مدى التقدّم الحضاري عند العرب والمسلمين، وليس غريبًا أن يكون العرب والمسلمون أوّل من ابتدع فنّ الرّسوم التوضيحيّة في التاريخ، وقد نقلته أوروبا عنهم في حضارتها المعاصرة، لذلك لم يجد العرب والمسلمون قديمًا وحديثًا غضاضة في الرّسم والتصوير، بل أصبح نشاطًا فنيًا مشروعًا، طالما أدّى إلى فائدة علميّة وجماليّة للإنسانيّة ■



## من تراث الجزري في الذروة التقنية للمسلمين

من شكل الخط ومن بعض التفاصيل الظاهرة في العمائر كالزخرفة والنوافذ المزدوجة. وتمثل تصاوير هذا المخطوط قصص غرام "بياض" لمحبوته والمراسلات التي دارت بينهما والمؤامرات التي حيكت للتفريق بينهما، ومع ذلك كله كانت تحدث اتصالات خفيّة بين العاشقين على شكل رسائل أو كتب، ففي أحد المشاهد نرى "شمول" إحدى الوصيفات العذارى وصديقة "رياض"، تسلّم رسالة من "رياض" إلى "بياض". ويقع هذا اللقاء عند أحد الأنهار خارج المدينة. وعلى مقربة من قصر ذي حديقة مسوّرة؛ ويلاحظ